

مقارنة بين حسّان بن ثابت الأنصاري و الخاقاني الشرواني في المدائح النبوية

تورج زيني وند^١

تاريخ القبول: ١٤٢٨/١٢/٤

تاريخ الوصول: ١٤٢٨/٨/١١

حينما جاء فجر الإسلام و شرع الناس يدخلون في دين الله أفواجا، ضَعُف الشعر العربي شيئاً فشيئاً، بسبب انشغال الناس بالمفاهيم القرآنية. ثم تطوّرت الأحداث في ذلك الزمن و أخذ بعض الشعراء المشركين يوجهون سهام أشعارهم إلى النبي (ص) و أصحابه، و سرعان ما قام شعراء آخرون من المسلمين، أمام تلك الأفواه المنحرفة و نظموا كثيراً من الأشعار في هجو هؤلاء و في الدفاع عن النبي (ص) و الدين الجديد .

و لما استأثر الله - سبحانه و تعالى - نبيه المكرّم إلى جوار رحمته، لم تخمد أضواء هذا الشعر، بل جرى على لسان الشعراء الملتزمين بحيث صار غرضاً يزدهر مع الأيام حتّى سَمِيَ بالمدائح النبوية. أمّا هذه الدراسة فقد ارتكزت على المضامين و الأساليب الشعرية في المدائح النبوية لدى شاعرين كبيرين، في الأديين العربي و الفارسي، هما: حسّان بن ثابت الأنصاري (شاعر الرسول) و الخاقاني الشرواني (حسّان العجم) .

الكلمات الرئيسية: المدائح النبوية، حسّان بن ثابت الأنصاري، الخاقاني الشرواني

١ . الاستاذ المساعد في فرع اللغة العربية و آدابها بجامعة كرمانشاه

١- مقدمة

المدح لغة هو حسن الثناء (ابن منظور، ١٩٩٨ م، مادة «مدح»). وفي اصطلاح أهل الأدب هو فنّ من فنون الأدب لاسيما في الشّعر، وقد راج في كثير من العصور القديمة و بخاصّة قبل أن يهتدي الشاعر أو الكاتب إلى فهم حقيقة رسالته في المجتمع، فكان يبدل ماء وجهه على أبواب المتنفذين في سبيل التّكسّب (أنظر: عبدالنور، ١٩٧٩ م: ٢٤٥، وأيضاً: ابن رشيق القيرواني، ١٩٩٨، ٢: ٢٧٦). أمّا المديح النبويّ، الذي يعدّ نوعاً قيماً من أنواع المدح، فهو لون من التعبير عن العواطف الدّينيّة و باب من الأدب الرفيع، لأنّه لا يصدر إلّا عن قلوب مفعمة بالإيمان، مليئة بالإعجاب بشخصية الرّسول الكريم(ص) (أنظر: الرّبداوي، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م: ١٠٧).

و لقد عُرف هذا الفنّ منذ بُعث الرّسول لأمة العرب هادياً ونذيراً و عرفه الشّعراء في صدر الإسلام و في العصور الّتي تلتها، حتّى برز شيئاً فشيئاً فنّ من فنون الشّعرالذي نما على يد المتصوّفين من الشّعراء خاصّة (أنظر: پاشا، ١٩٩٩ م: ٦٤٦).

إنّ أوّل قصيدة كانت ذات تأثير كبير علي الشّعراء في العصور التّالية، هي بردة «كعب بن زهير» (؟- ٦٢٢ م). ومطلعها؛

بَانتْ سَعَادُ فِقَلْبِي اليَوْمَ مَتَّبُولُ

مُتِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَّ مَكْبُولُ

(التبريزي، ١٩٧١ م: ١١)

و هكذا توالى الشّعراء ينظمون المدائح النبويّة الّتي بدأها أمثال كعب بن زهير و عبدالله بن رواحة و حسن بن ثابت الأنصاري (؟-٦٧٤ م/ ٥٤ هـ) ثمّ أكملها «شرف الدّين البوصيري» (١٢١٢-١٢٩٦ م/٦٠٨-

٦٩٦ هـ)، و أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢ م/١٢٥٨-١٣٥١ هـ) و الآخرون.

وسنبحث في هذه المقالة- الّتي تعدّ في حقل الأدب المقارن- المدائح النبويّة عند حسن بن ثابت الأنصاري شاعر الرّسول (ص)، و الخاقاني الشرواني (٥٢٠-٥٩٥ هـ .ق) الّذي سمّي في الشّعرالفارسيّ بـ «حسن العجم» بسبب مداخله النبويّة القيّمة، متأملين في المضامين و الأساليب الشعريّة لديهما، متبيّنين مكانتهما في هذا الشّعر الملتزم.

٢- المدائح النبويّة في شعر حسن بن ثابت الأنصاري و الخاقاني الشرواني:

٢-١- المدائح النبويّة في شعر حسن بن ثابت الأنصاري:

منذ انبثاق الرّسالة المحمّديّة و بزوغ فجر الإسلام، لعب الشعر و الأدب دوراً حيويّاً في استنهاض الأمة و كان الشاعر آنذاك بمثابة الإذاعة أو الصّحيفة. و من أشهرهؤلاء الشّعراء حسن بن ثابت الأنصاري الّذي يكنى «أبالحسام» لمنازلته عن الرّسول(ص)، و كان أبوه «ثابت بن المنذر حرام» من سادة قومه و أشرافهم. أقبل حسن على الرّسول و أسلم مع سائر النّاس الّذين تهافتوا عليه مبايعين و مؤمنين بالّذين الجديدي و قام بين يدي الرّسول معلناً إيمانه بالله و رسوله، حيث قال:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنَّ مُحَمَّدًا

رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ مِنْ عُلُ

(حسن بن ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٣٧٢)

فقال الرّسول (ص): «أنا أشهدُ معَكَ» (أنظر: الأصفهاني، ٢٠٠٠ م، ٤: ١٣٣- ١٧٠ و أيضاً: الجمحي، بدون تاريخ، ١: ٢١٧). ثمّ دافع حسن عن

بن الحارث» و «عمرو بن العاص» و «ضرار بن الخطاب الفهري» و «أبسی عزّة الجمحي» و «هبيرة بن أبی وهب المخزومي». فانتصر شعره في ميدان القتال وكافح جنباً إلى جنب مع السيف و الدرع، رغم أنه كان يعدّ شاعراً خمرياً و قبلتاً قبل دخوله الإسلام بمدح الغساسنة و المناذرة (المصدر السابق، ١٨٣).

أما القصائد التي خصّها بمدح النبي (ص) فهي: القصيدة الأولى؛ قالها في مدح المصطفى (ص) و ذلك قبل فتح مكة، هاجياً فيها أباسفيان بن الحارث و يصل عدد أبياتها إلى اثنين و ثلاثين بيتاً من البحر الوافر بهذا المطلع:

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ

إلى عَدْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلَاءِ

(حسان ثابت الأنصاري، ١٩٩٠ م: ٥٤)

القصيدة الثانية؛ أنشدها في مدح النبي (ص) و يصل عدد أبياتها إلى أربعة عشر بيتاً من البحر الكامل. مطلعها هكذا:

هَلْ رَسْمُ دَارِسَةِ الْمُقَامِ، يَبَابِ

مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ

(المصدر السابق، ٦٤)

القصيدة الثالثة؛ قالها في مدح النبي (ص) و يبلغ عدد أبياتها ستة عشر بيتاً من البحر الوافر:

عَرَفَتْ دِيَارَ زَيْنَبَ بِالْكَثِيبِ

كَحَطِّ الْوَحْشِيِّ فِي الرَّقِّ الْقَشِيبِ

(المصدر السابق، ٦٧)

القصيدة الرابعة؛ في تسعة أبيات من البحر الطويل:

أَعْرُ، عَلَيْهِ لِلنَّبِيِّ حَاتَمٌ

مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَ يُشْهَدُ

(المصدر السابق، ١٣١)

الإسلام بكلّ ما أوتى من شاعرية و لسان و وظفه في خدمة الرسول حتى صار من المقربين لدى الرسول، فأقامه وزير دعايته و محامي دعوته و شاعر رسالته ينافح عنه و عن الإسلام و المسلمين بشعر كان له وقع السهام و نفع الثبال. و الحقّ أنّ حسان كان آية من الآيات التي أيّد الله بها رسوله (ص) (أنظر: عيسى، ١٩٩٠: ٣٥٠).

وقد كان المشركون أهل لسن و فخرو هجاء و قد حاربوا الرسول بهذا السلاح، فكان لا بدّ له أن يعدّ لهم شاعراً سليط اللسان قويّ البيان، و الأنصار قد نصرّوا رسول الله بسيوفهم، فهم أجدد أن ينصروه بألسنتهم. و يبدو أنّ حسان بن ثابت، كان أوّل شاعر أجاب هذه الدعوة عندما خاطبهم النبي (ص): «ما منع القوم الذين نصرّوا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟». فقال حسان: «أنا لها» و أخذ يطرف لسانه و قال: «الله ما يسرّني به مقول بين بصرى و صنعاء». فقال: «كيف تمحوهم و أنا منهم؟»، فقال «إني أسألك منهم كما تُسألُ الشّعرة من العجين» (الأصفهاني، ٢٠٠٠ م، ٤: ١٣٧-١٣٨).

فقدّمه الرسول (ص) على غيره من الشعراء و انتدبه لهجاء المشركين و الدّود عن أعراض المسلمين و أقام له منبراً في مسجده ينشد عليه الشعر. فقد دعا الرسول مراراً له أن يؤيّد الله بروح القدس و حسان قائلاً: «فذاك حسان و شعره يا رسول الله» (المصدر السابق، ٤: ١٤٣)، ثمّ ينطلق منافحاً عن الإسلام بقلب مليء بالإيمان، و لسان لو وضعه على حجر، لقلقه أو على شعر، لقلقه. يتابع الرسول شعر حسان و يتأمله فيسرّ به و بحث على قول مثل هذا الشعر الذي يعزّز الدّين و الأخلاق و يقف في وجه الوثنيّة و القبليّة و العبوديّة و الطبقيّة (نور الدّين، ٢٠٠٠ م: ١٨٧). و لأجل هذا جرّد شاعرنا سيف شعره و كان بالمرصاد لتلك الأفواه المنحرفة كـ «عبد الله بن الزبيري» و «أبي سفيان

كالتابغة الذبياني (؟ - ٦٠٤ م) و الحطبيئة (؟) - ٦٧٩م/٥٩ هـ) و لم يعتمد إلى التكلّف في شعره بل يرسله كما أوحى به القريحة، ولكن كثيراً ما اضطرت له المواقف الإسلامية إلى الإرتجال. فلهذا يرى بعض النقاد أن شعره في الإسلام لا يصل إلى مقام شعره في الجاهلية. يقول صاحب طبقات فحول الشعراء في ردّ هذا الرأي: «قد حُمل عليه ما لم يُحمل على أحد» (الجمحي، بدون تاريخ، ١: ١٧٩)، كما يشير إلى هذا الأمر، عبد الملك بن قريظ الأصبغي حيث يقول: «تُنسب إليه أشياء لا تصحّ عنه». (ضيف، ١٩٦٣ م: ٧٩، نقله عن الاستيعاب: ١٣٠).

مهما يكن من الأمر، فصحيح أن الشعراء الذين نبتوا في الجاهلية وعاشوا في صدر الإسلام لا يصل شعرهم إلى ذروة ما أنشدوا في الجاهلية، أما إذا تأملنا في بواعث هذا الأمر فنلاحظ أنهم تأثروا تأثراً جلياً بالمعارف الإسلامية و القرآنية، بحيث يمكن لنا أن نلمس في شعرهم روحاً جديدة و سمة من الإيمان العميق، متخلفين بذلك عن الأسلوب الذي تعودوا أن يلتزموه في الجاهلية، و من هنا جاء شعرهم أغزرمعنى، لكنه أقل أسلوباً (ضيف، بدون تاريخ: ٣٠). إضافة إلى ذلك، لو أن شعر حسان كان ضعيفاً أو غثاً بارداً، فلماذا يتأمل الرسول في شعره و يحثه على الشعر و يسأل الله مراراً أن يويده بروح القدس و يرى تأثير شعره على المشركين كوقع السهام عليهم؟!.

بعد هذا، أورد بعض النقاد على حسن بأنه ظلّ مع رفاقه من شعراء النبي(ص)، جاهليّ الصّور و الصياغة و قلما استمدّوا من شخصيّة النبي معان جديدة؛ كالإنسانية و الأبوة و الرّحمة و العفو و السّماحة و سموالفكر والتجرد و الإنقاذ و الدّعوة إلى السّلم و المساواة

القصيدة الخامسة؛ قالها في مدح النبي(ص) و أصحابه يوم بدر في تسعة أبيات من البحر البسيط:

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَآذِي يُقَدِّمُهُمْ

جَلْدُ التَّحِيْزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَعْدِيدٍ

(المصدر السابق، ١٣٣)

القصيدة السادسة؛ يمدح فيها النبي(ص) في ستة أبيات من البحر الكامل:

وَ اللهُ رَبِّي لا تُفَارِقُ مَا جَدًّا

عَفَّ الْخَلِيقَةَ، مَا جَدَّ الْأَجْدَادِ

(المصدر السابق، ١٣٤)

القصيدة السابعة؛ في رثاء النبي(ص) و مدحه في خمسة و أربعين بيتاً من البحر الطويل :

بِطَبِيْبِهِ رَسْمٌ لِلرُّسُولِ وَمَعَهْدُ

مُنِيرٌ، وَقَدْ تَعَفُّو الرُّسُومَ وَتَهَمَدُ

(المصدر السابق، ١٤٢)

القصيدة الثامنة؛ أيضاً في رثاء النبي(ص) و مدحه في ثمانية عشرة بيتاً من البحر الكامل:

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لا تَتَأَمُّ كَأَنَّمَا

كُحِلَتْ مَا فِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

(المصدر السابق، ١٥٠)

القصيدة التاسعة؛ أنشدها في مدح الرسول(ص) و أصحابه في ثلاثة و عشرين بيتاً من البحر البسيط:

إِنَّ الدَّوَابَّ مِنْ فَهْرٍ وَ إِخْوَتَهُمْ

قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

(المصدر السابق، ٣٠١)

و يبدو أن أكثر ظاهرة في هذه القصائد هي دعوته إلى التوحيد أو التعمق في الحياة و الكون أو شعائر الإسلام و مدح الرسول وأصحابه. إن شاعرنا في هذه القصائد لا يلتزم مذاهب و اتجاهات غيره من الشعراء

الفاظه، جدید فی نفتحته الدینیة، بید آتہ لا تعدو الفطرة الجاهلیة و لکنها فطرة جلاها الدین وصلها الايمان (أنظر: البستاني، ۱۹۸۹ م ۱: ۲۷۸). ودالیتہ المشهورة هـی شعر محکم یؤید هذا الرأی حیث یقول:

أَعْرُ عَلِيَهُ لِلنَّبُوَّةِ خَاتَمٌ
مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۱)

فنجده هذه القصيدة، غنية بالتعاليم والقيم الإسلامية، و فيها تأثر شديد بالقرآن الكريم و إشادة بالنبي (ص) و بدوره و جهاده، و إقرار مطلق بنبوته و بالخالق الواحد، كما هي رد قاطع على أولئك الذين يدعون خلوه شعر حسن الإسلامي من التعاليم الإسلامية. فهذه القصيدة تشمل على النظام العقدي الإسلامي و على بعض جوانب النظام التشريعي. وكذلك صرح بهذه المسألة صاحب «موسوعة أمراء الشعر العربي من الجاهلية إلى العصر العباسي» (نور الدين، ۲۰۰۰ م: ۱۹۸). و من هذا المنطلق، نتأمل في ديوانه الذي يكون أحسن مصدر لتعريف شعره، و هو مليء بهذه التماذج. فمنها هذه الآيات التي يتحدث فيها عن أوصاف النبي (ص) بصفات، كالتقوي و قول الحق و البشير و النذير و الداعي إلى الله؛

أَعْنِي الرُّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ
عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَ بِالْجُودِ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۳)

وَ قَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا
يَقُولُ الْحَقَّ إِنَّ نَفْعَ الْبَلَاءِ
(المصدر السابق، ۵۹)

مُتَكْرَمًا يَدْعُو إِلَى رَبِّ الْعُلَى
بِذَلِكَ التَّصِيحَةِ رَافِعَ الْأَعْمَادِ
(المصدر السابق، ۱۳۴)

بين البشر و...، بل ظلوا يصفون شخصية النبي (ص) كزعيم أو سيد قلبي فهو؛ بطل، كريم، مشرق الوجه، وضاح الحسن، رفيع العماد، طويل التجاد، كثير الرماد، إذا ما شتا تماماً كصخر الخنساء أو من شابه صخر في نخوته و كرمه و بطولته و مثالها من الصفات المعروفة التي لم تكن شيئاً مذكوراً أمام صفات النبي (ص) و شمائله الربانية و خلقه العظيم و شيمته الإنسانية الفذة (شرف الدين، ۱۹۹۷ م: ۷۱). و يكمل مؤلف «المدائح النبوية» هذا الكلام حيث يقول: «لا يمكن، أن نعتبر أشعار حسن في مدح النبي (ص) كقسم من المدائح النبوية لأنه مدح النبي بالمضامين و الأساليب الجاهلية» (مبارك، ۱۹۷۶ م: ۶۹).

هذا النقد، صحيح على شعر حسن؛ ألت تراه وهو يقول في مدح النبي (ص) كما قالت الخنساء في رثاء صخر:

طَوِيلُ التَّجَادِ رَفِيعُ الْعَمَادِ
مُضَاصُ النَّجَارِ مِنَ الْخَزْرَجِ
(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۲۴)

و الأمثلة كثيرة في هذا الباب، و لكن هذا لا يعني أن أسلوبه يتخلل تماماً عن الروح الإسلامية كما صرح به هؤلاء، بل هذا مؤلف «أدباء العرب» يرد على هذا الرأي رداً صارماً و يعتقد بأن أسلوب شاعرنا، هو غير الأسلوب الذي عهدناه في الجاهلية، فهو لا يشبه محمداً بالأسد كما فعل كعب بن زهير، و لا يمعن في وصف جوده و سخائه كما يريد الإستجداء و التكبب من ممدوحه، بل يعني بوصف شمائله العر و يبيح في ذكر الرسالة و التصديق بها و يذكر ما حمل الإسلام للعرب من نور و هداية و أمل بعد يأس، و يعرض أحياناً بمن أنكر النبوة و كذب بها. فهو مدح جديد في نوعه و طريقته، جديد في تعابيره و

٥٩٥ هـ .ق). ولد «أفضل الدين» هذا، في بيت فقير، كان أبوه نجاراً حاذقاً وأمه كانت على دين المسيح (ع) قبل أن تؤمن بالإسلام، فترعرع في مدرسة عمه، «كافى الدين عمر بن عثمان» الذي كان طيباً حاذقاً وفيلسوفاً شهيراً. فتبواً عنده منزلة رفيعة في الشعروالتشر. و قد كان إلى جانب ذلك صاحب عزة رفيعة و مزايا إنسانية رائعة و إن كان قد خضع للحكام فترة من عمره لمعاناته البؤس والحرمان، طالباً للتعمة و الرّخاء.

اقتحم شعره أرجاء الممالك الإسلامية فأقبل على الملوك و الأمراء من «السلاجقة» و «الخوارزميين» والحكام الآخرين، طالباً حياة مترفة، و لكن من خلال السنوات التي حجّ فيها بيت الله الحرام و زار المدينة المنورة، أخذ يكتسب المعرفة القلبية كما اكتسب شعره الرقة التعبيرية. فبدأ شاعرنا يترك التصور و ينصب نفسه لمذح النبي (ص) و ما إلى ذلك مما ينبت عن العاطفة الصادقة و العقيدة الصافية. و لقد حقّ بعد ذلك أن يقال أنه هو «حسن العجم»، (أنظر: صفاء، ١٣٧٣ هـ .ش، ٢: ٧٧٦ وأيضاً: فروزانفر، ١٣٦٩ هـ .ش: ٦١٢). و سّماه، عمه بهذا اللقب من قبل، حيث يقول:

چون دید که در سخن تمام

حسن عجم نهاد نامم

(خاقاني شرواني، ١٣٣٣ هـ .ش: ٢٢١)

وحتي يدعى - مثل البوصيري - بأن بعض الصديقين رأوا النبي (ص) في المنام محتفياً بالخاقاني و معاتباً حسّاده:

اندرين هفته، هشت، نه صديق

مصطفى را به خواب دیدستند

کآمد و التفات کرد به من

زان، مرا چاه و آب دیدستند

و إن قلنا بأن الشعراء في صدر الإسلام قد توجهوا إلى مديح الاسلام المشتمل في شخص الرسول (ص) و في أصحابه المخلصين الكرام، فلماذا يخلو شعر حسن من مدح علي (ع) و هو سيف الله و رسوله؟! و حتى حين قتل عثمان، يشير إلى بني هاشم و الإمام علي (ع) خاصة، هكذا:

يَالَيْتَ شِعْرِي، وَلَيْتَ الطَّيْرُ تُخْبِرُنِي

مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَفَانَا

(المصدر السابق، ٤٦٣)

فنجده هنا يعارض أميرالمؤمنين (ع) بعداوته و يرميه بمعاريض القول في أشعاره و لذا يبدو أنه خاصة في أواخر حياته، يقدم رجلاً في الإيمان و يؤخر أخري في الضلال و التفاق. أليس هذا حسن ينشد قصيدته في قضية «غدیرخم»، بالمطلع التالي:

يُنَادِيهِمْ يَوْمَ الْغَدِيرِ نَبِيَّهُمْ

بُحْمٌ وَ أَسْمَعُ بِالرَّسُولِ مُنَادِيًا

(المفيد، بدون تاريخ: ١٥٨)

أهو كان انتهازياً أم لا؟! و لو كان هكذا، فما أدقّ قول النبي (ص) المفيد بـ «ما» المصدرية الظرفية، فيه؛ «مازلت فينا». ولعلّ هذه المسألة مما قد وُضعت عليه (أنظر: ضيف، ١٩٦٣ م: ٨٠).

٢-٢- المدائح النبوية في شعر الخاقاني

الشرواني

ليست المدائح النبوية مقصورة على العرب و الشعراء العرب، بل هناك آخرون من أبناء الفرس أحسوا بأهمية هذا الفن، فسخرّوا قلمهم و لسانهم في سبيل الذود و الدفاع عن الرسول (ص) و مدحه. و من جملة هؤلاء الذين عرفوا بمدح النبي (ص) في الشعر الفارسي «حسن العجم» أفضل الدين بديل بن علي نجار الخاقاني الشرواني (٥٢٠-

بانگش زندی ز عالم پاک

یا حسّان العجم فدیناک

(خاقانی شروانی، ۱۳۳۳ ه. ش: ۷۷)

أما المدائح النبویة التي نبجدها في شعر حسّان العجم فهي مقصورة على النبي (ص) أو مدح كبار الصحابة أو الذين أبلوا في الدفاع عن الإسلام بلاءً حسناً، وقليلاً ما يمجها بمدح أهل البيت (ع)، إذ أنه كان شافعياً (أنظر: فروزانفر، ۱۳۶۹ ه. ش: ۶۲۲).

هذه المدائح تختلف عن المدح التكمسيّ بخروجها عن التقلّب على معاني العطاء والجود والإنطاء على وصف الخصال الحميدة ورسالة نبينا (ص) و ما إلى ذلك مما يصدر عن العاطفة الحقة الصادقة ولا تخلو على كلّ حال من الشّعف والهيجان.

هذه القصائد التي تدلّ على عواطفه الصادقة، هي قصائد في التوحيد و الموعظة و مدح النبي (ص) أو تقارير في رحلاته عن الحجّ. إنه قد أجاد فيها بوصف البادية و حركة القوافل و مناسك الحجّ و الكعبة و عرفات و مني و الروضة النبویة المقدّسة، بحيث يذوب القارئ فيها ذوباً فكأنه يحجّ و يزور مع الشاعر.

يعتبر الخاقاني الشرواني من الشعراء البارزين في فنّ المدائح النبویة و تغلب على جميع أشعاره جزالة اللفظ و فخامة التعبير و المعنى و كثرة ما يتصل ببيئته من التعقيد و التصوير و قليلاً ما يميل إلى اللين و عذوبة اللفظ و سهولة الغرض خلافاً لما نراه عند حسّان العرب.

و يبدو أنّ المضامين التي أتى بها شاعرنا و أبدع و ابتكر فيها، تعدّ من أروع ما قيل في الشعر العربيّ و الفارسيّ؛ لأنّ هذه القصائد ناتجة عن الإعتقاد و الحبّ و قد أحسّ فيها حسّاً شديداً عاطفة. و من الواضح أنّه تمسكّ فيها بعدد من المقومات الفنيّة. فمنها؛ الإقتباس من

زده در پیش مصطفی خیمه؛

دست من در طناب دیدستند

مصطفی را، زرنج خاطر من

بابدان در عتاب دیدستند

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ ه. ش: ۲: ۱۱۶۵)

و مما لا ريب فيه أنّ الخاقاني الشرواني يعدّ شاعراً فحلاً، في القصيدة الفارسية، فهو يملك عنان الكلمات و العبارات، تميل معه حيث مال، و يطيعه الكلام إذا قال، بحيث تأثر به كثير من الشعراء و أتبعوا منهجه كما أنّه تأثر بأشعار حسّان، شاعر الرسول (ص)، و سلك مسلكه، في هذا الباب؛

چون ز راه مکّه خاقاني به يثرب داد روی

پيش صدر مصطفی، ثانی حسّان دیده اند

(المصدر السابق، ۱: ۱۷۵)

مصطفی حاضر و حسّان عجم مدحسرای

پيش سيمرغ خمش، طوطي گویا بينند

(المصدر السابق، ۱: ۲۰۷)

چون به در مصطفی نايب حسّان توي

فرض بود نعت او حرز أمم ساختن

(المصدر السابق، ۱: ۴۷۱)

لکنه كان يجد نفسه أعلى من حسّان شأناً في مقام الفخر:

رشك نظم من خورد حسّان ثابت را جگر

دست نثر من زند سبحان و ايل را قفا

(المصدر السابق، ۱: ۳۲)

گر زين سخنان سحر کردار

حسّان عرب شدی خيردار

١٣٦٧ هـ .ش: ٩ وأيضاً؛ كزازي، ١٣٧٢ هـ .ش: (٢٠١).

أما القصائد التي يختصّها بمدح النبي (ص) فهي:
القصيدة الأولى؛ في التوحيد و الموعظة و مدح خاتم
النبيين (ص) و يصل عدد أبياتها إلى ثلاثة و ثلاثين بيتاً من
البحر الرّمل. مطلعها :

جوشن صورت برون کن در صف مردان درآ
دل طلب دارکز دارِ مُلکِ دل، توان شد پادشا
(خاقاني شرواني، ١٣٧٥ هـ .ش، ١ : ٨)
القصيدة الثانية؛ في الموعظة والحكمة و وصف
المعراج و يبلغ عدد أبياتها ستة و ستين بيتاً من البحر
المضارع بهذا المطلع ؛

اي پنج نوبه كوفته دردار ملك «لا»
«لا» در چهار بالش وحدت كشد تو را
(المصدر السابق، ١ : ١١)
القصيدة الثالثة؛ في نعت النبي (ص) و الحكمة و
الموعظة التي يبلغ عدد أبياتها واحداً و تسعين بيتاً من البحر
الهنج. مطلعها :

عروس عافيت آنگونه قبول كرد مرا
كه عمر بيش بمادادمش به شيرهما
(المصدر السابق، ١ : ١٦)
القصيدة الرابعة؛ في مدح خاتم النبيين و في
الحكمة و الموعظة و التجريد و في ثلاثة و سبعين بيتاً
من البحر الهزج أيضاً، و مطلعها:

سرير فقر تو را سر كشد به تاج رضا
تو سر به جيب هوس در كشيده اينت خطا
(المصدر السابق، ١ : ٢٢)

القرآن الكريم و الأحاديث النبوية، و منها استعمال
الإصطلاحات العلمية ثم تمتعه بالثقافة المسيحية و التركية
(أنظر: صفا، ١٣٧٣ هـ.ش، ٢: ٧٧٦).

و يبدو أنّ شخصيّة الخاقاني و مواهبه الشعريّة تكاد
أن تكون منقطعة التطير في تاريخ الشعر الفارسيّ،
فقد امتلك شخصيّة متشعبّة، اصطبغت بأصول مختلفه تمده؛
أولاً؛ أنّه كان يعيش في مجتمع غلب عليه الأدب
العربي، ثانياً؛ امتزجت في دمه ثلاثة عناصر هي
الفارسيّة و التركيّة و العنصر المسيحي.

ثالثاً؛ أنّ أسفاره إلى مكّة و المدينة و العراق كمراكز
الدين و الأدب قد أرشدته إلى الزهد و التصوّف و فتحت
أمامه عوالم جديدة.

رابعاً؛ موهبته الشخصيّة التي ترعرعت في مدرسة
عمّه، كافي الدين عمر بن عثمان، ازدهرت و صارت
موهبة قوية غنية .

خامساً؛ أنّه تمتّع بأدب غنيّ خصب مثل الأدب
الفارسي الذي أثاره شعراء مثل الرودكي، و
الفردوسي و السنائي الغزنوي.

سادساً؛ هو يشعر بالعزّة و المنعة و الشرف التي لا
نظير لها في كلا الأديين؛ إنّهُ مثل بقية شعراء القرن
السادس؛ يفتخر بنفسه و نراه في هذا المضار يجري على
عادة أبي الطيّب المتنبي (٣٠٣-٣٥٤ هـ .ق)
(فاضلي، ١٣٧٨ هـ .ش، ٤٠٧، و أيضاً: زيني و نند، ١٣٨١ هـ .ش).
لأنّ نفسيته القويّة و قدرته على قرص الشعر و
شعوره بالقناعة و العزّة جعلته يميل إلى هذا الغرض. أمّا
في القصائد التي أنشدها في التوحيد و مدح النبي
(ص) - و تكون تلك القصائد أطول مدائحه - فلا
يتحدّث فيها عن تلك الشخصيّة المتكبّرة بل يتواضع أمام
الدين كتواضع المريض أمام الطيّب (أنظر: اردلان جوان،

رخش بهراً بتافت بر سرِ صِفْرِ آفتاب
رفت به چرب آخوری، گنج روان در رباب
(المصدر السابق، ۱: ۶۳۰)

القصيدة العاشرة؛ سمّاها بتحفة العراقيين و قالها في
خطابه إلى التّبيي(ص) حيث يبلغ عدد أبياتها سبعة و
سبعين بيتاً من البحر المضارع قائلاً:

ای قابل وحی و قالب حلم
ای عامل عدل و عالم علم
(خاقانی شروانی، ۱۳۳۳ هـ. ش: ۱۵۳)

۳- مضامين المدائح النبویة في شعر حسّان العرب و حسّان العجم:

جاءت مضامين المدائح النبویة عندهما متنوّعة؛ فأحياناً
يعتمدان على ذكر سيرته وأحياناً يؤكّدان على شرح
فضائله و عدّ شمائله و سرد ماكان في رسالته من المحاسن
و المكارم. و سأشير إلى بعض هذه المضامين المشتركة
أوالمضامين التي انفرد بها بعضهما، و جدير بالذكر أنّ
المعاني التي استعملت في مدائحهما، معظمها مستمدّة
من القران الكريم و الحديث الشريف و السيرة النبویة؛

۳-۱) في التحذير عن هوي النفس:

حسّان: وَاللّهِ رَبِّي لَأُفَارِقُ أَمْرَهُ
مَا كَانَ عَيْشٌ يُرْتَجَى لِمَعَادٍ
(حسّان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۵۳)
الخاقاني:

شاخ امل بز، که چراغي است زود مير
بيخ هوس بکن، که درختي است کم بقا
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش: ۱: ۱۳)

القصيدة الخامسة؛ في مدح التّبيي الأكرم و في
الحكمة والموعظة، يتراوح عدد أبياتها أربعة وخمسين بيتاً من
البحر المضارع. مطلعها:

طفلى هنوز، بسته گهواره فنا
مرد، آن زمان شوی که شوی از همه جدا
(المصدر السابق، ۱: ۲۸)

القصيدة السادسة؛ هي التّي سمّيت بـ «حرز الحجاز». و
أنشأها في الكعبة و أنشدتها في الروضة النبویة المنوّرة. و
يتراوح عدد أبياتها واحداً و تسعين بيتاً من البحر الرّمل. مطلعها:
شروان چون رخ صبح آيينه سيما بينند

كعبه را چهره در آن آينه پيدا بينند
(المصدر السابق، ۱: ۲۰۰)

القصيدة السابعة؛ هي التّي سمّيت بـ «كز
الركاز» و شأها كشأن «حرز الحجاز». يصل عدد أبياتها
إلى خمسة و سبعين بيتاً من البحر الرّمل، مطلعها:
مقصد اينجا ست نداي طلب اينجا شنويد

بختيان را ز جرس، صبحدم، آوا شنوند
(المصدر السابق، ۱: ۲۰۸)

القصيدة الثامنة؛ هي التّي يبلغ عدد أبياتها مائة
و ثلاثة أبيات، و سمّيت بـ «تحفة الحرمين» أو «تفاحة
الثقلين» من بحر الرّمل، مطلعها:

صبح خيزان بين به صدر كعبه، مهمان آمده
جان عالم ديده و در عالم جان آمده
(المصدر السابق، ۱: ۵۵۷)

القصيدة التاسعة؛ هي قصيدة «منطق الطير» في مطلعين؛
المطلع الأوّل في وصف الصبح و نعت الكعبة، و المطلع
الثاني في وصف الربيع و نعت التّبيي(ص). و يصل
عدد أبياتها إلى ستة و ستين بيتاً من البحر المنسرح.
ومطلعها الثاني:

۳-۲) في مدح الرسول (ص) :

حسان: وَأَحْسَنُ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي

وَ أَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النَّسَاءُ

خُلِقْتُ مُبْرَأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ

كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

(حسان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۶۳)

الخاقاني :

نطقش معلمی که کند عقل را ادب

خلقش مفرحی که دهد روح را شفا

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۱۴)

۳-۵) في التوسل و التشفع :

حسان:

مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَاكَ جِوَارَهُ

و فِي نَيْلِ ذَاكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَ أَجْهَدُ

(حسان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۵۰)

الخاقاني:

ای شفیع صد هزار امت چو خاقانی به حشر

بنده مرتد بود، بر دست تو ایمان تازه کرد

(خاقانی شروانی ۱۳۷۵ هـ. ش، ۲: ۱۱۴۸)

۳-۳) في التحدث عن سيرته (ص) :

حسان:

عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ، لَا يُتَنَّى جَنَاحَهُ

إِلَى كَنْفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمْهَدُ

(حسان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۲۹)

الخاقاني:

احمد مرسل که کرد از تپش و زخم تیغ

تخت سلاطین زگال، گرده شیران کباب

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۶۷)

۳-۶) في المناجات و التضرع:

حسان:

يَا رَبِّ فَأَجْمَعْنَا مَعًا وَ نَبَيْتَنَا،

فِي جَنَّةٍ تَنْسَى عِيُونَ الْحُسَدِ

(حسان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۱۳۴)

الخاقاني:

مرا به منزل «الآ الذين» فرود آور

فروگشای ز من طمطراق «الشعراء»

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۲۹)

۳-۴) في توصيف القرآن الكريم:

حسان:

يَتَلَوُ عَلَيْنَا التَّوْرَ فِيهَا مُحْكَمًا

قِسْمًا لَعَمْرُكَ لَيْسَ كَالْأَفْسَامِ

(حسان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۴۴۲)

الخاقاني:

در سیاهی سنگ کعبه، روشنایی بین چنانک

نور معنی در سیاهی حرف قرآن آمده

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۵۶۱)

۳-۷) في ذكر فضائله بالنسبة إلى الأنبياء الآخرين :

حسان: أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٌ

مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَ يُشْهَدُ

(حسان بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰ م: ۲۳۴)

الخاقاني:

جمع رُسل بر درش مُفلسِ طالبِ زكاة

او شده تاجِ رُسل؛ تاجرِ صاحبِ نصاب

(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۶۷)

الذی یشیر إلى هذا الحدیث؛ «كنت نبياً و آدم بین الماء و الطین» (بحار الأنوار، ج ۱۸ / ص ۲۷۸ / س ۱۳).
إذا نستشف من خلال الآیات أن تأثر الخاقانی بسلفه حسن بن ثابت، یدو من باب «التنص» یعنی أنه رغم ثقافته الواسعة و اطلاعه على شعر حسن و آداب العرب، لم یقتبس عن حسن اقتباساً من حیث المضمون و الأسلوب، بل جعله قدوة و دليلاً لشعره الذی یمتاز بالخلق و الإبداع.

خصائص أسلوبهما:

لقد كان حسن من المجددين في شعره، و قد أتاحت له حياته الطويلة و معاصرته لعصرين مختلفين كل الاختلاف، أن يكون مجدداً في تفكيره و مناهج شعره، لأن الإسلام الذی أدركه حسن قد أثر في شعره، و هذا التأثير و إن لم يكن قوياً و فاعلاً من فعل رواسب الجاهلية مثل استهلال بعض مدائحه بالمقدمة الطللية :

هَلْ رَسُمُ دَارِسَةِ الْمَقَامِ يَبَابِ

مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ

(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰م: ۶۴)

لكنه يعدل بعض الأحيان عن هذه المقدمة في مدح النبي (ص) :

أَعْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِيِّ خَاتَمٌ

مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَ يُشْهَدُ

(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰م: ۲۳۴)

إنه يمدح النبي (ص) بأسلوب يختلف عن الأسلوب الذی تعود عليه في الجاهلية. على سبيل المثال؛ هو لا يشبه نبينا (ص) بالأسد كما فعل كعب بن زهير و لا یمعن في وصف جوده و سخائه كمن يريد الاستجداء و التكبس، بل یعنی بوصف شمائله العز و بيح في ذكر الرسالة و

۳-۸) في التحدث عن جهاد رسول الله (ص):

حسن:

مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ رَكَابٌ لِمَا قَطَعُوا

إِذَا الْكُفْمَاءُ تَحَامَوْا كَالْأَقْسَامِ

(حسن بن ثابت الأنصاري، ۱۹۹۰م: ۱۳۴)

الخاقاني :

ديده نه اي روز بدركان شه دين بدر آور

راند سپه در سپه سوي نشيب و عقاب

(خاقاني شرواني، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۶۷)

و بعض المضامين التي إنفرد بها بعضهما :

۳-۹) في التحدث عن أهل بيت الرسول (ص):

در علمش ميرنحل نيزه كشيده چو نخل

غرفة صد نيزه خون أهل طعان و ضراب

(خاقاني شرواني، ۱۳۷۵ هـ. ش، ۱: ۱۳۲)

۳-۱۰) في التحدث عن حج بيت الله الحرام و

الروضة النبوية المنورة :

عرشيان بانگ « والله على الناس » زند

پاسخ از خلق؛ « سَمِعْنَا وَ اطَّعْنَا » شنوند

(المصدر السابق، ۱: ۶۶)

به سلام آمدگان حريم مصطفوي

« اَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ » از حرم آوا شنوند

(المصدر السابق، ۱: ۲۱۰)

۳-۱۱) في التحدث عن الحقيقة الحمديّة:

برنامه سبيده صبح ازل هنوز

كاو بر سیه سپید ازل بوده پیشوا

(المصدر السابق، ۱: ۲۱۲)

التصديق بها، و يذكر ما حمل الإسلام للعرب من نور و هداية و أمل بعد يأس و يعرض أحياناً بمن أنكر النبوة فيستفيد من أسلوب التهديد و الوعد فيها هو يخاطب أباسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب هكذا:

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ

و يَمْدَحُهُ وَ يَنْصُرُهُ سِوَاءِ

(المصدر السابق، ٦١)

فَإِنْ أَبِي وَ وَالِدَهُ وَعَرَضِي

لِعَرَضٍ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءِ

(المصدر السابق، ٦٢)

لَوْلَا النَّبِيُّ وَ قَوْلُ الْحَقِّ مَعْصَبَةٌ

لَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ أَنْتِي وَلَا ذِكْرًا

(المصدر السابق ٢٧٩)

يأتي حسّان في مدح النبيّ (ص) بألفاظ

جديدة لم يسبق لها مثيل في قاموس المدح العربي. ألفاظ مثل: جبرئيل و رسول الله و روح القدس و أمين الله و أمرالله و التقوى و العبادة و ... ألفاظه دائماً تأتي متآخية مع معانيه و تتلائم مع أفكاره و تدخل القلوب دون أن تكذب فكراً أو تنقل على السمع، وفيها أثر من الدين الجديد. فنجد ألفاظه رقيقة، عاذبة، لينة مع السلاسة و الطلاوة دون التكلف و التأنق كما نلاحظ فيها موسيقى القوة و الدعوة ذات جلجلة تناسب مع جلجلة صدر الإسلام.

فقد غلب على أسلوبه، طابع الارتجال و تخلو قصائده المدحية من الوثبات الخيالية، و الأفكار مثبتة في شيء من الوضوح و التظلم كما أنها حقائق أفرغت في قالب من التقرير و الخبر، لا أعمال فيها لصور الخيال من التشبيهات المركبة أو الاستعارات التمثيلية، مستعملاً أسلوباً إنشائياً أو خبرياً :

أَلَا أَخْبِرُ أَبَاسُفِيَانَ عَنِّي

فَأَنْتَ مُجْـوِّفٌ نَجِبٌ هَوَاءُ

(المصدر السابق، ٦٠)

بَيْتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَ فِتْرَةٍ

مِنَ الرَّسْلِ وَالْأَوْثَانِ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ

(المصدر السابق، ١٣١)

و بما أن حسّان كان ابن البيئة الإسلامية الجديدة، و يعد من الشعراء الذين عاصروا الدعوة الإسلامية، فقد تأثر في مدائحه تأثراً كبيراً بالآيات القرآنية مقتبساً منها معاني جديدة؛

فَازْهَبْ خَبِيبُ جَزَاكَ اللَّهُ طَيِّبَةً

وَ جَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْحُورِ فِي الرَّفْقِ

(المصدر السابق، ٣٤٣)

فقد أخذ معنى قوله من الآية المباركة: «وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (الواقعه « ٥٦ » ٢٢ / ٢٤).

و في قوله:

مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأُلِي سَلَفُوا

وَ أَبْذَلَ النَّاسَ لِلْمَعْرُوفِ لِلْحَادِي

(المصدر السابق، ١٥٣)

فقد أخذ معناه من الآية المباركة التالية:

« مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ هَدَى وَ بُشِّرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » (البقرة «٢» / ٩٧)

المدائح النبوية مبثوثة في جميع قصائده الإسلامية، و إن استقلت في بعض الأحيان، إلا أنها جاءت منتشرة في الهجاء والرثاء. علي سبيل المثال عندما يرثي النبي(ص) في القصيدة التي مطلعها:

مَا بَالَ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّمَا

كُحِلَّتْ مَا قِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

(المصدر السابق، ١٥٠)

طفلی هنوز بسته گهواره فنا
مرد، آن زمان شوی که شوی از همه جدا
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ ه. ش، ۱: ۲۸)
و إذا كان ابن الرومیّ ضنیماً بالمعانی، حریصاً
علیها، يأخذ بالمعنی الواحد و یولده، فلا یزال یقلبه ظهرّاً لبطن
، و یصرّفه فی کلّ وجه و إلى كل ناحیة حتّی یمیته و تعلم
أنّه لا مطمع فیہ لأحد، (ابن رشیق القیروانی، ۱۹۹۸ م،
۲: ۲۳۸) فکذلک شأن الخاقانیّ فی المدائح النبویّة. ألسنت
تری کیف یصورّ حضة من التراب الذی أتى به من تربة
الرسول (ص) فی قصیده یصل عدد أبیاتها إلى ثمانية و ثمانین
بیئاً (أنظر: زینبی‌وند، ۱۳۸۳: ۱۴۴).

مطلعها هی:

صُبح وارم؛ کآفتابی در نمان آوردهام

آفتابم؛ کر دم عیسی، نشان آوردهام
(خاقانی شروانی، ۱۳۷۵ ه. ش، ۲: ۲۳۸)
و هذا ما جعل أسلوبه قریباً إلى التّر بسبب طول القصائد
الّتی قد تصل أحياناً إلى مائة بیت. و بعبارة أخرى كثرة احتفال
الشاعر بالتحلیل و التفسیر؛ دلیل علی افتقاد شعره الشیء الكثير
من الخیال الشعری و بلاغة المعنی الموجز و رونقه.
و قد تأتي أحياناً فی مدائحه النبویّة، ألفاظ فی غاية
الغرابة و التکلف إلاّ أنه یستخدم اللّغة استخدام المعمار موادّه
الإنشائیة فی بناية، و یتأقّ فی صوغ الألفاظ تأقّ الرسام فی
الأشکال و الألوان. ألفاظه معبّرة عن المعنی تمام التّعبیر، كما
تتسم تراکیبه بمتانة التّکیب و بلاغة الأداء، لكنّها لا تخلو من
بعض الغموض و التکلف. منها هذا البیت الذی تطرّق فیہ الى
معراج التّبی (ص) و دنوه من الخالق فکان قاب قوسین أو أدنی:

ای پنج نوبه کوفته دردارِ مُلک لا

لا در چهاربالش و حدت کشد تو را

(المصدر السابق، ۱: ۱۱)

بمدحه بقوله:

نُوراً أضاءَ علی البریّة کلّها

مَنْ یُهدِ لِلنُّورِ المِبارکِ یَهْتَدِی

(المصدر السابق، ۱۵۱)

من جانب آخر، كثيراً ما یفتخر بنفسه و بقومه إذ کان
شاعر الرسول و لسان دعوته كما کان قومه یدافعون عن
الدّین الجدید و الرسول الأکرم؛
لِسَانِی صَارُمٌ لا عِیبَ فیهِ

و بَحْرِی لا تُکَدِّرُهُ الدّلاءُ

(المصدر السابق، ۶۳)

فَقُمْنَا بِأَسِیافِنَا دُونَهُ

نُجَالِدُ عَنْهُ بُعَاةَ الأُمَمِ

(المصدر السابق، ۴۲۸)

و هذا هو حسنّ و أسلوبه الذی سیطر علیه الإرتجال،
الأسلوب الذی لا یخلو من القوّة و الاندفاع العاطفی
العنیف الصادق، و لا یخرج عن آثار الدّین الجدید و القرآن
الکریم، كما کان شعره مصدراً من مصادر تاریخ تلك
الأیام و فاتحة للشعر السیاسی الذی ازدهر فی عهد
بنی أمیة.

أما الخاقانی فیستهلّ قصائده بالتحدّث عن التّوحد
أو الموعظة أو وصف الكعبة العلیاء أو التّحذیر من هوی
النفس و أحياناً بوصف الصّبح الملمّع أو ومضات من
التّزعة الصوفیة، دون أن یصل فیها إلى ذروة الحکیم،
السنایبی الغزنوی أو ناصر خسرو (۳۹۴-۴۸۱ ه. ق)
(خاقانی شروانی، ۱۳۵۷ ه. ش، ص الثلاثون)، لكنّه یطلعنا
فیها علی نزعتة الصوفیة و قدرته علی خلق أجواء
خاصّة، تتسم بألوان التّصوّف و الزهد. منها هذا البیت
فی مطلع قصیده مدح فیها نبینا الکریم؛

الظاهرة الأخرى التي تشاهد في مدائحه النبوية هي الاستفادة من الثقافة المسيحية، لأن أمه كانت مسيحية قبل إيمانها بالإسلام، منها هذا البيت؛
مرم غشاده روزه و عيسى بيسته نطق
كاو در سخن غشاده و سر سفره سخا
(المصدر السابق ١: ١٤)

و من يطالع الشعر الكلاسيكي عند العرب و الفرس يدرك أن البحور المستعملة بكثرة هي: الطويل، والكامل، والوافر، والبسيط، و قد استفاد كلا الشاعرين من هذه البحور في أشعارهما، و القارئ لقصائدهما يدرك أنهما قد لائما بين موضوعات الشعر وأوزان البحور. على سبيل المثال إنهما يستعملان الطويل و البسيط في المناسبات التي تتطلب قوة أو وصفاً في مدح النبي (ص). و قد تأتي أحياناً في المدائح النبوية للخاقاني - القوافي العصية و الأردفة الصعبة، خلافاً لما نجده عند حسن - فمثلاً يستعمل شاعرنا كلمة «أمده» في ثلاثمائة مرة كالرديف في قصيدة «تحفة الحرمين».

و الخلاصة هي أن أسلوب الخاقاني في المدائح النبوية يعد أسلوباً سهلاً و ممتنعاً؛ ليأتي بألفاظه بين الوضوح و الغموض، فلها جرس موسيقي منقطع النظير، كما يستفيد من الصور و الأبيات التي تكون أحسن و أروع من تلك التصاوير التي إستعملها حسن بسبب العناصر التي اقتضتها تغييرات الزمان و المكان.

٥- النتائج

٥-١) السمات المشتركة:

٥-١-١) لا تخلو مدائحهما من وحدة الموضوع كعنصر أساسي في تكوين أجزاء القصيدة.

ينج نوبه كوفتن: كناية عن إعلان الحكومة و هذا صار معهوداً من زمن السلاجقة حيث كانوا ينقرون الأبواق في خمس مرّات و اقتبسها الشاعر لمفهوم إقامة الصلاة. دار ملك لا: دار حكومة لاله الاالله. چهار بالش وحدث؛ المسند و المعول لوحداية الله تعالى. و في كل هذه المنعطفات يريد أن يمدح النبي بقربه إلى الله و إعلانه النبوة و إقامة الصلاة لكنّه سلك مسلك الغموض. و ربّ معنى جميل أفسده لفظ غريب. أما الإقتباس من القرآن الكريم فهي ظاهرة فنية أكثر استعمالها في شعر الخاقاني ولا نجد قصيدة من قصائده النبوية إلا و سَمَّها بآيات من القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية. على سبيل المثال قد اقتبس في إحدى قصائده سبعاً و عشرين آية من آيات القرآن المجيد، منها هذا البيت؛
با «نفس مطمئن» قرينش كن آنچنان

كاواز «إرجعي» دهدش هاتف رضا

(المصدر السابق، ١: ١٦)

الذي يشير فيه إلى هاتين الآيتين من سورة «الفجر»؛
«يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً»
(الفجر «٨٩» / ٢٧-٢٨).

فضلاً عن هذا، إن الملاحظ في بعض مدائحه مثل قصيدة «منطق الطير»، يجد فيها نوعاً من الأسلوب القصصي الذي لم يسبق له في المدائح النبوية عند الشعراء الآخرين، حيث يحكي عن سرب من الطيور التي تريد أن تختار وردة جميلة في الطبيعة، فلأجل هذا تنتشر في أرجاء الأرض و تشم كل الورود، و لكنها لا تتفق في آرائها على واحدة، فترجع الحكم إلى «العنقاء» التي تختار الوردة المحمدية، و منها هذا البيت على لسان «العنقاء»؛

گرچه همه دلکشند، از همه گل نغزتر

كو عرق مصطفاست؛ وين دگران خاك و آب

(المصدر السابق، ١: ٦٦)

٥-٢-٣) إنّ الخاقاني يصبّ جلّ اهتمامه على الألفاظ والمعاني أكثر من حسنّ.

٥-٢-٤) إنّ الخاقاني يعنى عناية فائقة بعنصر الموسيقى الشعرية بما يستعمله من الألفاظ والتراكيب والأوزان والقوافي المناسبة.

٥-٢-٥) إنّ الخاقاني يستعمل الأسلوب القصصى في بعض مدائحه مع أنّ هذه الظاهرة لا توجد في شعر حسنّ إلا في قصيدة واحدة وهو يسرد فيها قضية «غدير خم».

٥-٢-٦) المدائح النبوية تعكس لدى حسنّ مقدرة على الإرتجال، أما عند الخاقاني فهي تشهد على طول باع الشاعر وقدرته على قرض الشعر بحيث يتبادر إلى الأذهان أنّه شاعر من شعراء الحوليات.

٥-٢-٧) إنّ حسنّ خالف أحياناً عمود الشعر أو نهج القصيدة فهو مثلاً لا يبدأ قصائده بالوقوف على الأطلال والدمن، بل يستهلّها بتعريف الدين الجديد ورسوله، أمّا الخاقاني فلم يخالف في كثير من الأحيان عمود الشعر، حيث يستهلّ قصائده بالتوحيد والحكمة أو الوصف كما كان مشهوراً عند بقية الشعراء الملتزمين.

٥-٢-٨) إنّ معاني المدح عند حسنّ جاهلية و إسلامية، أما مجمل معاني المدح عند الخاقاني فهي إسلامية بسبب اختلاف البيئة والثقافة.

٥-٢-٩) إنّ الخاقاني أكثر استعمالاً للألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة بالنسبة إلى حسنّ.

المراجع

المراجع العربية:

- [١] ابن رشيق القيرواني، أبوعلی الحسن (١٩٩٨م)؛ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق؛ محمد قرقزان، الطبعة الأولى، بيروت، دارالمعرفة.

٥-١-٢) كلاهما حريص على الإقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية.

٥-١-٣) إنّهما يمدحان النبيّ (ص) مدحاً صادقاً و بما هو أهله، دون أي تكسّب أو استجداء.

٥-١-٤) لا تخلو مدائحهما من بعض المضامين والأساليب المشتركة وأحياناً المتباينة.

٥-١-٥) كلاهما يتبعان أسلوب الشعراء السالفين، لكنّهما يعدّان من الشعراء المجددين في هذا الفنّ، كما أنّهما يعدّان من الشعراء المؤثرين في غيرهما. على سبيل التذكير، قد تأثر بأشعار حسنّ أمثال «الكميت بن زيد الاسدي» و«الفرزدق» و«البوصيري» و«أحمد شوقي» والآخرون. كما أنّ «جمال الدين عبدالرزاق الاصفهاني» (٥٨٨ هـ.ق) و«سعدي الشيرازي» (٦٠٦-٦٩٠ هـ.ق) قد تأثرا بأسلوب الخاقاني.

٥-١-٦) كثيراً ما يستعملان في مدائحهما عنصر «المفاخرة» بأشكالها المختلفة؛ الفردية، أو القومية أو الدينية.

٥-١-٧) إنّ المدائح النبوية عند حسنّ و الخاقاني تعدّ مصدرّاً من مصادر تاريخ تلك الأيام، كما أنّها تكشف عن جماليات هذا الفنّ وعن عواطفهما الصادقة العميقة.

٥-٢) السمات المتباينة:

٥-٢-١) إنّ المدائح النبوية للخاقاني أكثر طولاً و استقلالاً من شعر حسنّ كما أنّها أكثر اختراعاً و تفسيراً للمعاني و أبعد نظراً و دقة في وصف دقائق الأشياء.

٥-٢-٢) إنّ حسنّ أكثر استعمالاً عناصر التهديد و الوعيد و الحماسة بالنسبة إلى الخاقاني، بسبب اختلاف البيئة.

- [٢] ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٨م)؛ لسان العرب، تحقيق؛ علي سيري. الطبعة الأولى، بيروت، داراحياء التراث الإسلامي.
- [٣] ابو حاقّة، أحمد (١٩٧٩ م)؛ الإلتزام في الشعر العربي، الطبعة الأولى، بيروت، دارالعلم .
- [٤] الأصفهاني، أبو الفرج (١٩٨٣ م)؛ الأغاني، بيروت، داراحياء التراث العربي .
- [٥] حسّان بن ثابت الأنصاري (١٩٩٠م)؛ شرح؛ عبدالرحمن البرقوقي، دارالكتاب اللبناني .
- [٦] البستاني، بطرس (١٩٨٩م)؛ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الاسلام، بيروت، دارنظير عبود.
- [٧] التبريزي، الخطيب (١٩٧١م)؛ شرح قصيدة كعب بن زهير في النبيّ (ص)، تحقيق؛ ف، كرنكو. بيروت، دارالكتب الجديدة.
- [٨] باشا، عمر موسى (١٩٩٩م) تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، دمشق، دارالفكر.
- [٩] الجمحي، محمد بن سلّام (بدون تاريخ)؛ طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمدشاکر. دارالمدني بجدّة.
- [١٠] الحسيني، سيد جعفر (١٤١٦ هـ .ق)؛ تاريخ الأدب العربي (أدب صدر الإسلام)، الطبعة الأولى، قم، دارالإعتصام .
- [١١] ريداوي، محمود (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م)؛ ابن حجة الحموي؛ شاعراً وناقداً، دارقتيبة .
- [١٢] زيني وند، تورج (١٣٨٣ هـ .ش)؛ مقارنة بين ابن الرومي و الخاقاني الشرواني في تفسير المعاني و استقصائها، خلاصه مقالات اولين همایش بين المللي نقش زبان در گفت وگوي تمدنها، دانشگاه اصفهان .
- [١٣] الشايب، أحمد (١٩٧٦ م)؛ تاريخ الشعر السياسي، بيروت، دارالقلم .
- [١٤] شرف الدين، خليل (١٩٩٧م) الموسوعة الأدبية الميسرة، الطبعة الأولى، بيروت، دارومكتبة الهلال،
- [١٥] ضيف، شوقي، (بدون تاريخ)؛ الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة الثامنة، مصر، دارالمعارف.
- [١٦] ———، (١٩٦٣م)؛ تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي)، الطبعة السابعة، القاهرة، دارالمعارف،
- [١٧] ———، (١٩٧١ م)؛ فصول في الشعر و نقده، الطبعة الأولى، القاهرة، دارالمعارف .
- [١٨] عبدالنور، جبور (١٩٧٩ م)؛ المعجم الأدبي، الطبعة الأولى، بيروت، دارالعلم للملايين .
- [١٩] عيسي، يوسف (١٩٩٠م)؛ حسّان بن ثابت الأنصاري، حياته و شعره، الطبعة الأولى، بيروت، دارالكتب العلمية .
- [٢٠] الفاخوري. حتّا (١٣٨١ هـ .ش)؛ تاريخ الأدب العربي، الطبعة الثانية، طهران، طوس .
- [٢١] مبارك، زكي (١٩٧٦ م)؛ المدائح النبوية، الطبعة الثانية، بيروت، دارالعلم للملايين .
- [٢٢] مفيد، محمد بن محمد (بدون تاريخ)؛ الإرشاد في معرفة حجج الله علي العباد، طهران، دارالكتب الإسلامية.
- [٢٣] نورالدين، حسن (٢٠٠٠م)، موسوعة أمراء الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر العباسي، الطبعة الأولى، بيروت، شركة رشاد برس .

[۳۲] کزازی، میر جلال‌الدین (۱۳۷۲ هـ. ش.)

رخسار صبح، چاپ دوم، تهران، ماد .

[۳۳] کندلی هریسچی، غفار (۱۳۷۴ هـ. ش.)؛

خاقانی شروانی، حیات، زمان و محیط او،

ترجمه؛ میر هدایت حصاری، چاپ اول، تهران، مرکز

نشر دانشگاهی .

[۳۴] ماهیار، عباس (۱۳۷۳ هـ. ش.)؛ گزیده

اشعارخاقانی، چاپ دوم؛ تهران، قطره، ۱۳۷۳

ه. ش.

[۳۵] معدن کن، معصومه. نگاهی به دنیای خاقانی،

چاپ دوم؛ تهران، مرکز نشر دانشگاهی .

[۳۶] وزین پور، نادر (۱۳۷۴ هـ. ش.)؛ مدح، داغ‌ننگ

بر سیمای ادب فارسی، چاپ اول، تهران، معین .

المواقع الإلكترونية

[۳۷] أبوالخیر، محمود عبدالله. مقدمة القصيدة الجاهلیة

عند حسن بن ثابت الأنصاري.

[38] www.upu.edu.sa/majalt/shariramag/magzi/mG-016.hotm. 2002/10/13

[۳۹] شمسی‌باشا، محمد عبدالرحمن. حسن بن

ثابت شاعر الرسول.

[40] www.Khayma.com/mchamsipasha/Hassan.htm. 2002/10/13

المراجع الفارسیة:

[۲۴] خاقانی شروانی (۱۳۷۵ هـ. ش.)؛ دیوان خاقانی،

تصحیح؛ میرجلال‌الدین کزازی، چاپ اول، تهران،

ماد.

[۲۵] ———، (۱۳۳۳ هـ. ش.)؛ مثنوی تحفة

العراقین، تصحیح؛ یحیی قریب، چاپ اول، تهران،

شرکت سهامی کتابهای جیبی .

[۲۶] دشتی، علی (۱۳۶۴ هـ. ش.)؛

خاقانی شاعر دیر آشنا، چاپ چهارم، تهران

، اساطیر .

[۲۷] رزنجو، حسین (۱۳۶۹ هـ. ش.)؛ شعر کهن

فارسی در ترازوی نقد اخلاق اسلامی، چاپ

سوم، مشهد، آستان قدس رضوی .

[۲۸] زرین کوب، عبدالحسین (۱۳۷۸ هـ. ش.)؛ دیدار

با کعبه جان، چاپ اول، تهران، سخن .

[۲۹] زینبی‌وند، تورج (۱۳۸۱ هـ. ش.)؛ مقایسه ی

بین ابی‌طیب‌المتنبی و خاقانی شروانی در شعر

فخر، رساله کارشناسی ارشد، تهران، دانشگاه تربیت

مدرس .

[۳۰] صفا، ذبیح‌الله (۱۳۷۳ هـ. ش.)، تاریخ ادبیات در

ایران، چاپ سیزدهم، تهران، فردوس.

[۳۱] فروزانفر، بدیع‌الزمان (۱۳۶۹ هـ. ش.)؛ سخن

و سخنوران. چاپ چهارم، تهران. خوارزمی .

مقایسه بین حسّان بن ثابت الأنصاری و خاقانی شروانی در مدایح نبوی

تورج زینی‌وند^۱

تاریخ دریافت: ۱۳۸۶/۶/۳

تاریخ پذیرش: ۱۳۸۶/۹/۲۴

با دمیدن خورشید اسلام و آغاز ایمان توده های مردم به این دین، و نیز بدلیل گرایش مردم به آموزه های قرآنی، شعر عربی به تدریج به سستی گرایید. سپس، رخدادهایی در آن زمان به وجود آمد که برخی از شاعران گمراه، تیرهای سخن خویش را روانه پیامبر (ص) و اصحابش نمودند و دیری نپایید که شاعران مسلمان نیز در برابر آن گمراهان، ایستادگی نموده و شعرهای فراوانی را در هجو آنان و در دفاع از پیامبر (ص) و اسلام، سرودند.

و چون پیامبر رحلت نمود و به ملکوت اعلی پیوست، پرتوهای این شعر خاموش نشد بلکه همواره بر زبان شاعران متعهد، جاری بوده تا اینکه با گذر زمان، رشد کرده و با عنوان «مدایح نبوی» شناخته شد. این پژوهش، به بررسی مضمون و ساختار مدایح نبوی در شعر حسّان بن ثابت (شاعر پیامبر (ص)) و خاقانی شروانی (حسّام العجم) از شاعران بزرگ ادب تازی و پارسی، می‌پردازد.

واژگان کلیدی: مدایح نبوی، حسّان بن ثابت الأنصاری، خاقانی شروانی

۱. استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه رازی کرمانشاه